الخطابات الثلاثة ويختمها بسرعة قبل أن يراها الكونت، ولكنه غيَّر رأيه. حمدًا لله أنه فعل ذلك، لأنه إضافةً إلى أن الكونت أعطاه أظرفًا شفافة مرة أخرى، فقد فتح الأختام بالفعل ليتأكد من محتوى الرسائل.

لكن جوناثان في الوقت نفسه اعترضه حظ سيئ. عندما رأى من نافذته بعض الغجر بالخارج يبحثون عن عمل، قرر أن يكتب خطابًا إضافيًّا إلى مينا بلغة الرموز ويحاول إخراجه للغجر ليرسلوه بالبريد. وقرر أن يلقيه بالخارج ومعه عملة ذهبية. لم يكن سيخبر مينا طبيعة موقفه بالتفصيل، وإلا ماتت من الرعب، ولكنه كان سيخبرها ما يكفي لعلها تستطيع مساعدته، ولو بإرسال السيد هوكينز.

بعد أن لفت جوناثان انتباه أحد الغجر، ألقى إليه الخطاب والعملة الذهبية، مشيرًا بيديه إلى أنه يحتاج منه إرسال ذلك الخطاب بالبريد. بدا أن الرجل الغجري فهم مقصده ووافق عليه، فتنفس جوناثان الصعداء.

غير أنه في مساء اليوم التالي، دخل الكونت إلى الغرفة، وجلس إلى جوار جوناثان، وأعطاه الخطاب الذي كان قد كتبه إلى مينا. وكان الخطاب مقروءًا. أما العملة المعدنية، فلم تكن موجودة بالتأكيد.

قال الكونت: «أحد الغجر بالخارج أعطاني هذا الخطاب، لقد وجدوه على الأرض بالخارج وظنوا أنه سقط مني خطأً، ولكن يبدو أن هذا كان خطأك أنت.»

عندما نظر الكونت إلى الخطاب ورأى الرموز الغريبة المقتضبة التي كُتب بها، استشاط غضبًا، وتطاير الشرر من عينيه. ثم التفت فجأة وألقى الخطاب في النار.

قال: «لا أظنك ستمانع فعلي هذا، فبالتأكيد حدث خطأ، ولم يكن هذا بالفعل خطابك الذي كتبته بلغة اخترعتها.» ثم استدار وغادر الغرفة.

في اليوم التالي، عندما عاد جوناثان إلى غرفته بعد جولة خارجها، وجد أن كل الأوراق والأقلام قد اختفت واختفت معها نقوده وشيكاته، حتى بذلته ومعطفه.

حمد جوناثان الله لأنه احتفظ بدفتر يومياته على جسده، وإلا كان الكونت وجده أيضًا. لكن الأمر أصبح أمرًا واقعًا: لقد صار سجينًا أكثر عزلة الآن!

الفصل الخامس

جوناثان يتفقد الكنيسة الصغيرة

في اليوم التالي، سمع جوناثان صوت جلبة خارج نافذته، فأسرع لينظر. لم يرَ غجرًا هذه المرة، ولكنه رأى بعض السلوفاكيين، كان اثنان منهم يرتديان جلود أغنام قذرة وأحذية عالية الساق ويقودان عربتين كبيرتين تجرهما ثمانية خيول قوية.

صرخ جوناثان نحو الأسفل بأعلى ما استطاع حتى بُحَّ صوته، لكنهم لم يرفعوا رءوسهم لينظروا إليه. رأى جوناثان أن العربتين كانتا تحملان صناديق مربعة ضخمة تشبه النعوش، وقد رُبط بكل منها حبل غليظ يُشدُّ منه. أفرغ السلوفاكيون الصناديق في ساحة القلعة بسهولة، فعلم جوناثان أنها كانت فارغة. وبعد إنزال الصندوق الأخير، ضرب السلوفاكيون الخيول بأسواطهم وانصرفوا.

على مدار الأيام القليلة التالية أتى رجال آخرون. وقد استنتج جوناثان من واقع ما رآه أن الصناديق كانت توضع في مكان عميق بقبو القلعة. في كل أرجاء المنزل، كانت تنبعث من القبو أصوات مكتومة لمجارف تحفر الأرض والصخور. ما الذي كان يجري؟

ذات ليلة، رأى جوناثان الكونت يخرج من نافذة حجرة نومه متسلقًا الجدار لأسفل كالسحلية مرة أخرى، ولكن المختلف هذه المرة أن الكونت كان يرتدي الملابس التي أُخذت من غرفة جوناثان! أدرك جوناثان في هلع أن الكونت أراد أن يظن الناس أنهم رأوا جوناثان نفسه، كدليل آخر يدعم الخطابات الزائفة. وكان يخشى من أن يُلام على أي شر يمكره الكونت في المدينة.

في وقت لاحق من تلك الليلة، استيقظ جوناثان على صوت بكاء مرير في البهو بالأسفل. عندما اندفع لينظر من النافذة، رأى امرأة شعثاء تلهث من أثر البكاء والركض. عندما رأت وجه جوناثان مطلًّا من النافذة، تقدمت المرأة نحوه وأشارت إليه صائحة: «أيها الوحش! أعد إليَّ كلبي! رجاءً! أتوسل إليك!»

قبل أن يجيبها جوناثان، سمع همس الكونت الغليظ القاسي، ينبعث من مكان ما في الأعلى، ربما كان برج القلعة، وكأنما يستدعي شيئًا ما. راقب جوناثان المشهد في رعب وقد بدا أن الرد على نداء الكونت جاء من كل صوب وحدب، ففي كل أرجاء الوادي، كانت الذئاب تعوي. وفي غضون دقائق، اندفعت مجموعة منهم من المدخل الفسيح إلى البهو وكأن سدًّا مانعًا قد انهار.

أغمض جوناثان عينيه. لم يحتمل رؤية ذلك. لكنه لم يكن بحاجة إلى سد أذنيه لأن المرأة لم تصرخ، لم يكن هناك وقت. وبعد دقائق قليلة، تفرقت الذئاب بعيدًا، وهي تتحرك بهدوء وتلعق شفاهها.

كان اليوم التالي يوافق تاريخ آخر خطاب أجبر الكونت جوناثان على كتابته. لم يكن أمامه وقت طويل. وكان عليه التوصل إلى خطة بأسرع وقت!

أدرك جوناثان أنه لم تسبق له رؤية الكونت في ضوء النهار. هل يُحتمل أن السبب في ذلك هو أن الكونت ينام عندما يستيقظ الآخرون؟ ليته يتمكن من دخول غرفة الكونت! قطعًا سيجد هناك إجابات عن بعض أسئلته. ولكن كيف؟ كان الباب موصدًا دائمًا.

خطرت له فكرة. إذا كان الكونت قد خرج من نافذته، متسلقًا الجدار، فربما استطاع جوناثان أيضًا التسلق بالطريقة نفسها، والعثور على مفتاح الباب الأمامي في مكان ما بالداخل. بالطبع لم يكن يستطيع القفز على الجدران كالسحلية، لكن كانت هناك نتوءات بالجدران الخارجية للقلعة، وأحجار أخرى ذات أحرف حادة. كلها كانت تصلح كزوايا وصدوع تسع أصابع الأقدام البشرية.

وفي وقت لاحق من ذلك اليوم، وجد نافذة مفتوحة في نفس مستوى نافذة الكونت وبينهما إفريز مشترك. خرج جوناثان متسلقًا الجدار. وبينما كان يسير ببطء بجانب واحد من جسده، نظر إلى أسفل، لكن الارتفاع الشاهق روَّعه كثيرًا فوجَّه نظره إلى أعلى بعد ذلك. وما إن وصل نافذة الكونت وانسلَّ داخلًا، حتى نظر حوله سريعًا في خوف يبحث عن الكونت. لكن الغرفة كانت خاوية.

كانت الغرفة في الحقيقة غير مؤثَّثة، ومغطاة بالغبار، وكأنها لم تُستخدم من قبل. وفي إحدى زواياها، رأى كومة من الذهب مغطاة بالغبار أيضًا، وكل شيء كان يبدو أنه مضى عليه مئات السنين. وفي أقصى نهاية الغرفة، ضُرب بباب غليظ من ورائه سلالم دائرية تنحدر بشدة وتصل إلى عمق بعيد تحت سطح الأرض. كتم أنفاسه محاولًا أن يتمالك نفسه، ومضى قدمًا.

وبعد أن نزل إلى نهاية الدرج واجتاز ممرًّا آخر حجريًّا طويلًا، وجد نفسه في كنيسة قديمة مهدَّمة. كانت الأرضية من التراب، ويبدو أنها كانت تُستخدم كمقبرة. وهناك، كانت تحيط به التوابيت التي أحضرها السلوفاكيون من كل جانب. لكنها كانت ممتلئة آنذاك بتراب قد استُخرج من الأرض حديثًا.

وفي أحد التوابيت التي كان عددها خمسين تابوتًا (أحصاها جوناثان بسرعة)، وفوق كومة من التراب المندَّى، كان يرقد الكونت! لم يعرف جوناثان هل كان نائمًا أم ميتًا. كانت عيناه مفتوحتين وشفتاه حمراوين كعادتهما، لكنه لم يُصدر أي حركة أو نبض أو نَفَس، ولم يكن قلبه يدق.

وبعد أن ألقى جوناثان نظرة خاطفة أخيرة على عيني الكونت الباردتين كالأموات، استدار وهرع ليصعد الدرج، فخرج من نافذة الكونت، وسار على الإفريز بجانب جسمه، ثم دخل مرة أخرى عبر النافذة التي خرج منها.

عاد إلى غرفته وألقى بجسده على الفراش وهو يلهث ويحاول التفكير. غدًا يحين موعد آخر خطاب. فماذا يفعل؟

عندما رأى جوناثان الكونت في وقت لاحق ذلك المساء، بعد أن استيقظ من قيلولته في التابوت، تجرَّأ وسأله: «هل سأغادر غدًا؟»

أجاب الكونت: «نعم يا صديقي، غدًا نفترق.»

سأله جوناثان: «لماذا لا يسعني الرحيل الليلة؟»

اندهش الكونت ورد بأن قائد العربة والخيول خرجوا في مهمة.

قال جوناثان: «يسعدني أن أذهب سيرًا.» لم يعد يكترث لظهور خوفه من عدمه. لقد أراد الهروب، وكان عليه ذلك!

سأله الكونت: «وماذا عن أمتعتك؟»

أجاب: «يمكنني الإرسال لأخذها في وقت لاحق.»

وقف الكونت وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة شيطانية، وقال: «بالطبع لم أكن لأبقيك ساعة واحدة في منزلي ضد رغبتك. إذا أردت أن ترحل الليلة، فبالطبع لك هذا.»

التقط الكونت مصباحًا في انحناءة وجيهة وأضاء الدرج لجوناثان موصلًا إياه إلى الباب الأمامي. اطمأن جوناثان كثيرًا حتى إنه شعر أن بوسعه قطع الطريق إلى لندن ركضًا، إذا لزم الأمر.

ولكن ما إن اقتربا من الباب، حتى بدأت أصوات مألوفة تتعالى. لقد كان عواء الذئاب القادم من الوديان الموجودة أسفل القلعة يتعالى شيئًا فشيئًا، تمامًا كما حدث تلك الليلة عندما أتت المرأة تبحث عن حيوانها المسروق.

عندما وضع الكونت يده على مقبض الباب الضخم وجذبه، رأى جوناثان أن الذئاب كانت بالفعل تقف عند الباب الأمامي، وهي تثب وتلعق بألسنتها، في انتظار أن يخطو خطوةً للخارج. لم يحُل بينه وبين مصيره سوى جسد الكونت.

صرخ جوناثان: «أغلق الباب، سأنتظر حتى الصباح!»

قال الكونت في هدوء: «كما تشاء. كل ما أريده هو إرضاء ضيوفي.»

اضطرب تنفس جوناثان منذ ذلك الحين ولم تهدأ أنفاسه حتى صاح الديك معلنًا طلوع الصباح التالي. ركض مباشرةً إلى الباب الأمامي وحاول فتحه، لكن الباب لم يتحرك. بدأ اليأس يتملكه وهو يواصل محاولاته لجذب الباب، لكن الباب كان موصدًا مرة أخرى من الداخل بمفتاح؛ كان ذلك المفتاح غالبًا يحمله الكونت على جسده.

التفت جوناثان وقد علم أن عليه العودة إلى غرفة الكونت ومنها إلى القبو ليجد لنفسه مهربًا.

كان تابوت التراب لا يزال في مكانه، لكن الغطاء كان موضوعًا فوقه وعليه المسامير غير مثبتة به، بل موضوعة في انتظار أن يقوم شخص بدقها. وعندما رفع جوناثان الغطاء، رأى الكونت. كان هناك شيء مختلف. حينها كان الوحش النائم يبدو أصبى من عمره بسنين. تحول شعره وشاربه الأبيضان إلى الرمادي الداكن، وتوردت وجنتاه وامتلأت من بعد شحوبهما. وأخيرًا كانت شفتاه أكثر احمرارًا من أي وقت مضى، ورأى جوناثان عليهما آثارًا طفيفة للدماء. لقد كان الكونت يتجرعه، وكان هذا أثره عليه.

عندما نظر جوناثان إلى الابتسامة الساخرة التي ارتسمت على وجه الكونت النائم، أدرك أن هذا هو الكائن الذي كان يساعد في نقله إلى لندن، حيث يمكنه أن يعذب المدينة قرونًا قادمة ويخلق دائرة جديدة من أشباه الشياطين — كالنسوة الثلاث — ليفترسوا الضعفاء.

لم يكن ليسمح بهذا. وعندما نظر حوله، رأى جاروفًا استخدمه العمال حتمًا في ملء التوابيت. رفعه جوناثان لأعلى ونزل به بأقصى قوته ليضرب وجه الكونت البغيض. لكن في تلك اللحظة، تحركت رأس الكونت ووقع نظره على جوناثان وكأنه يحدق به، فارتبك جوناثان وأخطأت الضربة الموضع المنشود، لكنها أصابت جبهة الكونت بجرح بسيط.

لم يقوَ جوناثان على فعل ذلك. فعلى أي حال، لم يكن جوناثان نفسه وحشًا. وبعدها سمع صوتًا قادمًا من بعيد؛ أصواتًا عذبة تغرد بأغنية غجرية كانت تقترب. وعلا فوق صوت الأغنية صوت دواليب ثقيلة تتدحرج وقرع سياط. لقد عاد السلوفاكيون.

وسرعان ما اقتربت الأصوات أكثر، وبدت كأنها صادرة من داخل المنزل. صعد جوناثان الدرج مسرعًا ليخرج من القبو، وانتظر بغرفة الكونت، التي كانت أيضًا مقفلة من الداخل، وقد قرر أن يهرع إلى الخارج لحظة فتح الباب المؤدي إلى الرواق.

لكن فجأة بدت الأصوات صادرة من القبو في الكنيسة. أدرك جوناثان أنه حتمًا كان هناك مدخل آخر. حاول أن يركض مرة أخرى إلى قبو الكنيسة، ولكن في تلك اللحظة هبت ريح صكت الباب المؤدي إلى الدرج الملتف بصوت مرتفع. وعندما حاول فتحه، وجده موصدًا بإحكام.

كانت تنبعث من القبو أصوات طرق، ووطء أقدام، وتحريك أشياء ثقيلة. كان ذلك صوت دق المسامير في تابوت الكونت لإغلاقه وإخراج السلوفاكيين لذلك التابوت مع التوابيت الأخرى الممتلئة بالتراب من القلعة. وعندما ركض جوناثان ونظر من النافذة، رأى العربات محمَّلة عن آخرها، وقد بدأت تتحرك في قافلة خارجةً من الفناء.

لقد فات الأوان. خرج الكونت في طريقه إلى لندن، وتُرك جوناثان وحيدًا هنا في القلعة مع تلك النسوة البشعات. لقد كان الأمر فوق احتماله. وكان عليه الخروج من ذلك المكان اللعين، الذي كان يسكنه الشيطان وذريته في صورة بشر. سيهرب حتى وإن كلفه ذلك حياته. فتح جوناثان النافذة وبدأ يتسلق.

الفصل السادس

العاصفة تأتي بسفينة غريبة إلى ويتبي

كانت مينا موراي — خطيبة جوناثان — قلقة؛ فقد طال غيابه، ولم يراسلها سوى مرات قليلة، ولم تعتد هذا منه. ولم تألف أسلوبه الذي كتب به؛ حيث تحدث بجفاء ورسمية وبلغة تقليدية بدلًا من اللغة المختصرة التي كان يستخدمها عادةً.

قالت لنفسها ربما كان مشغولًا فحسب، وحاولت أن تهدئ نفسها. إلى جانب أن خطاب جوناثان الأخير كان ينص بوضوح على أنه بخير وسيعود في غضون أسبوع. لم تطق صبرًا حتى تعرف كل مغامراته في ترانسلفانيا.

في الوقت نفسه، ستنشغل مينا اليوم بزيارة مرحب بها من صديقتها المخلصة لوسي ويستيرنا. فقد تلقت لوسي مؤخرًا ثلاثة عروض زواج وليس عرضًا واحدًا، وكانت تتوق إلى إخبار مينا عن كل شيء.

كان أول عرض من الدكتور جون سيوارد، وهو شخص طيب وذكي يدير مصحة نفسية صغيرة في منزل بالمدينة التي كان يعيش بها أيضًا. لم تكن تحبه، لذا رفضت عرضه.

والعرض الثاني كان مقدمًا من أمريكي لطيف جدًّا قادم من تكساس ويُدعى السيد كوينسي بي موريس. ربما كانت شخصيته المرحة سببًا في سهولة تقبله للرفض أكثر من الدكتور سيوارد.

أما العرض الثالث فكان مقدمًا من السيد آرثر هولموود. وهو صديق للعائلة منذ زمن بعيد، طويل القامة، وسيم، مجعَّد الشعر، وفي الحقيقة هو الذي عرف الرجلين الآخرين عليها. ولكن هو وحده من فاز بقلبها. وكان عرضه هو الوحيد الذي تستطيع قبوله.

كانت الشابتان ستذهبان في عطلة صغيرة للاحتفال والتخطيط للزواج. وكانتا ستمكثان في ويتبي، في قرية صغيرة تشتهر بصيد الحيتان، بنزل صغير يطلُّ على الميناء والخليج.

كانت ويتبي مدينة عتيقة غائمة وجميلة. وعلى ضفاف الخليج، كان جزء من مقبرة قديمة فوق جرف قد هبط نحو الماء، فمالت بعض شواهد القبور، وكأنها حديقة منحوتات حزينة. ولأن لوسي كانت شخصية سريعة التأثر بطبيعتها إلى حد ما، شعرت بانجذاب خاص نحو المقبرة القديمة. جلست المرأتان هناك ساعات على أحد الشواهد التي نُحِّيَت جانبًا، وأحيانًا كانتا تجلسان في صمت، قانعتين بالأفكار والكتب.

وفي أحيان أخرى، كانتا برفقة آخرين من أهل المدينة المثيرين الذين كانوا يلتقونهم من وقت لآخر. كان بعض هؤلاء الناس يقصُّون حكايات خرافية. فمثلًا إذا سمعوا جرسًا يدق فإن هذا يعني أن سفينة فُقدت في البحر. وكان رجل عجوز يُدعى السيد سويلز يهزأ دائمًا من مثل هذه الأمور ويرفضها لأنها قصص أشباح سخيفة.

ولكن مع مرور أيام عطلتهما، وبدلًا من الاسترخاء، بدأت كلتا المرأتين تشعران بمزيد من التوتر. بدايةً، منذ وصول آخر خطابات جوناثان الثلاثة الغريبة المقتضبة والرسمية، لم تصل كلمة واحدة أخرى منه. والأدهى من ذلك أنه أخلف وعده ولم يعد إلى لندن حتى ذلك الوقت.

لوسي أيضًا كانت تُصيب مينا بالتوتر. فقد رجعت إلى عادة السير أثناء نومها كما كانت تفعل في طفولتها. كانت مينا تحاول أن تنام نومًا خفيفًا حتى تستطيع أن تستيقظ على صوت تجول صديقتها في المكان وتُعيدها برفق إلى فراشها.

حتى الطقس بدا عليه الاضطراب. وتوقع الصيادون المحليون اقتراب حلول عاصفة. حتى سيد سويلز العجوز اعترف بهذا؛ فأشار إلى البحر ذات يوم وهو يرتجف وقال: «تحمل الرياح معها صوت الموت ومظهره ومذاقه.»

ربما كان السبب هو السفينة الغريبة التي لاحظ العديد من أهل المدينة وجودها عند أطراف المدينة مؤخرًا وهي تجوب حولها في فضول كبير وتغير مسارها مع كل هبة ريح.

أصاب الصيادون؛ كانت العاصفة التي هبت في النهاية على ويتبي من أشد العواصف التي شهدتها المدينة على الإطلاق. وفي اليوم الذي اكتسحت فيه العاصفة المدينة، كان مشهد غروب الشمس مشهدًا عظيمًا بمعنى الكلمة، وقد خرج أغلب أهل المدينة إلى

المرتفعات ليشهدوا الألوان الرائعة. ولاحظ جميع الحاضرين أن السفينة الغريبة كانت لا تزال قرب الميناء فاتحة أشرعتها بالكامل، مما كان يشكل خطرًا كبيرًا في ظل الرياح المتسارعة.

بعد منتصف الليل بقليل، انبعث صوت غريب من عرض البحر. ودون إنذار، انفجرت السماء، وارتفعت الأمواج معلنة غضبها، فحولت البحر إلى وحش كاسر. غزت اليابسةَ كتلٌ كثيفة من الضباب. وتراقصت السحب البيضاء كالأشباح. وبينما كان الرعد يضرب والبرق يومض، كان أهل المدينة محتشدين وقد حبسوا أنفاسهم مترقِّبين وصول القوارب التي ما زالت في البحر واحدًا تلو الآخر إلى الميناء بأمان ليبتهجوا بذلك.

وأخيرًا، لم يبقَ في البحر سوى السفينة الغريبة وقد نشرت أشرعتها بالكامل. كانت تبدو حينها معرضة لخطر الابتعاد عن الميناء تمامًا والتحطم فوق الشعاب الحادة الواقعة وراءها مباشرةً. وبعد ذلك، حدثت معجزة؛ فقد تحول مسار الرياح وسيقت السفينة نحو الميناء مندفعة بشدة فوق سد رملي، ولكن دون أن يصيبها مكروه.

عندما اقترب أهل المدينة من السفينة، كان أول ما رأوه جثة، رأسها متدلٍّ، ويدها مربوطة بالحبال إلى دفة توجيه السفينة. ولم يكن على متنها أي كائن حي آخر. لقد كانت السفينة تقودها يد ميتة!

قال واحد من أهل المدينة: «ما هذا الذي يمسكه؟» قفز أحدهم فوق ظهر السفينة ليرى. لقد كان صليبًا. وكان أثر ضغط الصليب على اليد يدل على أن القبطان كان يقبض عليه بقوة.

هلع الجميع عندما قفز كلب ضخم من باطن السفينة إلى ظهرها فجأة واخترق الجماهير واختفى في الظلام متجهًا نحو المقبرة.

الفصل السابع

أكثر مرضى الدكتور سيوارد إثارةً للفضول

بصفته طبيبًا، كان جون سيوارد يعلم أن أفضل علاج للقلب المنفطر هو العمل. نعم، كان هذا ما يجب عليه فعله: أن ينهمك في العمل بالمصحَّة النفسية. وكان أحد المرضى مثيرًا للاهتمام بصفة خاصة تجعله الحالة المثالية التي تُلهي الطبيب.

كان اسم المريض آر إم رينفيلد، وكان أغرب المجانين حالًا. كان يتمتع بقوة بدنية كبيرة وتقلبات مزاجية حادة، تتراوح بين نوبات من الاكتئاب التام والإثارة الهائلة. كان أنانيًّا وكتومًا، وكان يبدو أنه يخفي هدفًا غريبًا عزم الدكتور سيوارد على اكتشافه.

كانت السمة الصالحة الوحيدة في رينفيلد — على ما بدا — حبه للحيوانات بما فيها المخلوقات الحقيرة مثل الذباب والعناكب. استدرج رينفيلد الكثير منها إلى غرفته عن طريق النافذة، حتى اضطر دكتور سيوارد إلى وضع حد لهذا.

قال الطبيب بلطف: «لا بد أن تتخلص من هذه الحشرات.»

وما يثير الدهشة أن رينفيلد وافق. في الواقع، عندما طارت ذبابة سمينة جدًّا حولهم في تلك اللحظة، قرر رينفيلد أن يتخلص منها في التَّوِّ واللحظة. فأمسك بها بين إصبعيه، وقبل أن يتمكن دكتور سيوارد من منعه، أكل الحشرة.

شعر دكتور سيوارد بالاشمئزاز، فنهر رينفيلد على ما فعل. لكن رينفيلد أجاب بأن الحشرات كائنات حية، وعندما يأكلها تمنحه تلك الحياة. وبعد مرور أيام، رأى دكتور سيوارد أن رينفيلد أوى حيوانًا جديدًا؛ عصفورًا ممتلئ الجسم، فأشفق الدكتور عليه. ربما كانت الحشرات القليلة المتبقية هي ما اجتذب ذلك العصفور. وبالطبع أكله رينفيلد هو الآخر. وجزم الدكتور بأن رينفيلد قد تعدى كل الحدود عندما طلب قطة بعد ذلك.

أجاب دكتور سيوارد قائلًا: «هذا مرفوض بالطبع.»

ذات ليلة، ذهب دكتور سيوارد لإجراء محادثة مع رينفيلد، لكنه لم يكن في حالة مزاجية تسمح له بالحديث. كانت تغمره الإثارة وكان مشتتًا؛ فلم يقل سوى: «أجل، أخيرًا، اقترب السيد، اقترب السيد.»

وفي وقت لاحق من تلك الليلة، جاء الموظف المقيم لإيقاظ الدكتور سيوارد. لقد هرب رينفيلد من نافذته بالمشفى. ارتدى دكتور سيوارد ملابسه على الفور. لقد كان رينفيلد أخطر من أن يجول في الأرجاء حرًّا.

ما إن خرج دكتور سيوارد، حتى رأى رينفيلد يتسلق جدارًا على مرمى البصر، ويركض نحو كارفاكس الذي كان عقارًا قريبًا منهم. وبعد أن عبر دكتور سيوارد بنفسه من فوق الجدار، وجد رينفيلد لدى الباب المؤدي إلى ذلك الجزء من المنزل الذي كان كنسية في يوم من الأيام. وعندما اقترب الدكتور، سمع ما يلي: «أنا هنا يا سيدي. الآن وقد أصبحت قريبًا، فأنا أنتظر أوامرك.»

لحقه الموظف، وتمكَّنا معًا من الإمساك برينفيلد الذي قاومهما كالنمر، وكأنه وحش لا إنسان. وفي النهاية تمكنا من إعادته إلى المصحة.

كان آخر ما سمعاه قبل أن يغلقا باب الزنزانة: «سأتحلى بالصبر يا سيدي، فأنت قادم!»

بعد هروبه، ظل رينفيلد في حالة غريبة. لقد كان عنيفًا للغاية طوال النهار، ثم هادئًا جدًّا منذ طلوع القمر حتى شروق الشمس. وبعد بضعة أيام، فرَّ المريض ثانيةً راكضًا مباشرةً نحو كارفاكس مرة أخرى، وملقيًا نفسه على باب الكنيسة مرة أخرى.

قاوم رينفيلد وهم يمسكونه، ولم يهدأ إلا عندما رأى شيئًا على مسافة بعيدة. وعندما التفت دكتور سيوارد ليرى ماذا هناك، رأى سفينة كبيرة يرفرف شراعها في صمت وغموض نحو الغرب.

الفصل الثامن

لوسي تسير أثناء نومها إلى المقبرة

رحلت العاصفة عن ويتبي بسرعة كما هبَّت عليها بسرعة، وكأنها حققت غرضها الوحيد. اتَّضَح أن السفينة الغريبة كانت سفينة روسية تُدعى «ديميتر»، تحمل شحنة غريبة جدًّا؛ عددًا من التوابيت الخشبية الضخمة المملوءة بالتراب. وبعد ذلك ببضعة أيام، أتى موظفون لدى إحدى الشركات وقدموا أوراقًا تثبت أنهم استُؤجروا ليأخذوا التوابيت وينقلوها. فصرَّحت الشرطة لهم بنقلها.

في جيب القبطان المتوفى، وجدت الشرطة زجاجة بها رسالة. كان القبطان قد كتب الرسالة قبيل وفاته، وحكى فيها عن طاقم ظلَّ أفراده يُفقدون واحدًا تلو الآخر. كان أحدهم قد أبلغ عن رؤية رجل طويل ونحيف وشاحب البشرة على متن المركب، ولم يكن ينتمي إلى الطاقم. لكن عندما بحثوا لم يجدوا أحدًا.

كانت الرسالة تتحدث عن تزايد الضباب وتعطل المحركات واختفاء المزيد من الرجال. وأخيرًا، لم يتبقَّ سوى القبطان ورجل آخر؛ رجل روماني لم يزعم أنه رأى الغريب الطويل الشاحب فحسب، وإنما زعم أنه طعنه بسكين اخترقت شفرتها جسده وكأنها تمر خلال الهواء!

استنتج الروماني أن ذلك الغريب ربما كان مختبئًا في أحد هذه التوابيت! وأقسم على أن ينزل ويبحث في كل صندوق. لكن بعد دقائق قليلة، سمع القبطان صرخة مروعة بعدها ركض الروماني عائدًا إلى ظهر السفينة.

بحسب ما جاء في الرسالة التي كانت بجيب القبطان، صرخ الرجل والخوف يملأ عينيه: «أنقذني!» كان الرعب قد تملك القبطان وهو يرى الروماني يركض نحو السياج ويلقي بنفسه ليلقى حتفه في المياه الباردة بالأسفل، ظانًّا أن البحر وحده هو الذي يستطيع إنقاذه.

وآخر ما جاء في الرسالة أن القبطان رأى الرجل شاحب البشرة هو الآخر، وقال: «لكني لن أترك عجلة القيادة، مهما حدث، لن يجبرني هذا الوحش الشرير على هذا!»

لم يستوعب أحد ما جاء في هذه الرسالة. هل كان القبطان مجنونًا؟

حضرت المدينة كلها جنازته، باستثناء السيد سويلز المسكين. لقد وجدوه ميتًا ذلك الصباح، جالسًا على مقعد السيدتين المفضل في المقبرة. قال الطبيب إنه مات من الخوف. كان وجهه لا يزال يحمل تعبير التحديق إلى شيء مريع. فما الذي قد يكون رآه؟

أصيبت مينا بإرهاق شديد ليلة الجنازة، حتى إنها غطَّتْ في نوم عميق ولم تسمع لوسي وهي تنهض وتسير أثناء نومها لتنزل الدرج وتخرج من النُّزل.

عندما استيقظت مينا، لم تجد صديقتها؛ فشعرت أنها تعرف إلى أين قد تكون لوسي ذهبت. أحضرت شالًا ثقيلًا وأسرعت نحو الأجراف والمقبرة. وكما توقعت، عندما اقتربت وبزغ ضوء القمر من وراء سحابة، رأت صديقتها من بعيد شاحبة مرتدية ثوب نومها الأبيض وهي تجلس على الشاهد المفضل لديهما.

ولكن ما هذا الذي كان يقف وراءها، ذلك الشيء الطويل الأسود الذي كان يميل نحوها؟ هل هو ظل سحابة؟ شخص ما أو حيوان؟ ركضت مينا بأسرع ما استطاعت، وعندما وصلت تأكدت مما رأت: كان شيء طويل أسود يميل نحو صديقتها التي كانت مُضطجعة.

صاحت: «لوسي!» فرفع الشيء الأسود رأسه ليكشف عن وجه أبيض وعينين حمراوين وامضتين. هل كان ذلك حقيقيًّا أم أنها هي الأخرى كانت تسير أثناء نومها وتحلم؟ أخفت السحب القمر لحظة أخرى، ليختفي كل شيء في الظلام. وعندما عاد القمر، كان الوحش قد اختفى وكانت لوسي لا تزال نائمة. هزَّتها مينا برفق لتوقظها، فأنَّت واضعة يدها على عنقها. ظنت مينا أنها ربما أُصيبت بالتهاب في الحلق بسبب هواء الليل البارد.

أعطت مينا الشال للوسي وثبتته حول عنق صديقتها بدبوس وأعادتها إلى النُّزُل. وفي اليوم التالي، بدت لوسي بخير باستثناء أن عنقها كان به ثقبان دقيقان.

قالت مينا: «أعتذر بشدة، لا بد أنني قد جرحتك بدبوسي.»

قالت لوسي: «لا مشكلة، لم أشعر بأي شيء.» لكن مينا كانت قلقة، فأثناء الإفطار حكت لوسي عن شيء كانت متأكدة من أنه حلم، فوصفت نفس الشيء الطويل الأسود ذي العينين الحمراوين الوامضتين الذي رأته مينا نفسها.

تلك الليلة، أوصدت مينا الباب المؤدي إلى غرفتهما، واحتفظت بالمفتاح في رباط حول معصمها، حتى لا تستطيع لوسي إيجاده ومغادرة النُّزُل ثانيةً. وبالرغم من ذلك، جرَّبت لوسي طريقًا آخر. انتبهت مينا في منتصف الليل على صوت فتح مزلاج النافذة.

ذهبت مينا لتحضر صديقتها وتبعدها عن النافذة. وهناك في السماء الفاصلة بينهما وبين القمر، رأت خفاشًا عملاقًا يحلق في دوائر واسعة.

قالت مينا وهي ترتجف: «عودي إلى فراشك!» وأطاعتها لوسي النائمة.

كل ليلة بعد ذلك، ظلت لوسي تسير أثناء نومها إلى النافذة. وما إن تصل إلى هناك، حتى كانت تغطُّ في النوم ورأسها مستند إلى عتبة النافذة. ذات ليلة هبت ريح باردة أيقظت مينا، وعندما ذهبت لتتفقد صديقتها، وجدتها نائمة هناك، وبجانب عنقها مباشرةً كان يجلس طائر أسود عملاق.

وبمرور الأيام، زادت لوسي شحوبًا أكثر فأكثر. ربما كان هواء الليل البارد هو السبب. لمحت مينا رقبة صديقتها ذات يوم فقلقت عندما لاحظت أن الثقبين الدقيقين لم يكونا في طريقهما إلى الشفاء، بل بالعكس، لقد ازدادا سوءًا! إذا لم يلتئما قريبًا فستصر مينا على عرض لوسي على طبيب.

الفصل التاسع

جوناثان يتحسن ولوسي تتدهور

كم كان ذلك خبرًا مؤلمًا ومطمئنًا في الوقت ذاته! وأي حزن ذلك الذي شعرت به مينا. لقد سمعت أخيرًا خبرًا عن جوناثان، في صورة رسالة من مديره السيد هوكينز.

وفقًا لما جاء في الرسالة، كان جوناثان مريضًا في أحد مشافي بودابست طيلة الأسابيع الستة الماضية. لم يكن قادرًا على التواصل بوضوح، فقد كان يعاني حمى في المخ، ويهذي بأشياء عن الذئاب والسم والدماء والأشباح والشياطين. لم تعرف الممرضات ماذا كان يعني هذا بالضبط، لكنهم صبروا عليه ورعوه حتى استرد صحته.

غادرت مينا متجهة إلى بودابست على وجه السرعة. وعندما وصلت المشفى ورأت خطيبها، كانت تلهث من روع ما رأت. كان جوناثان في غاية الضعف والشحوب.

قال وقد أجهش بالبكاء: «آه يا مينا، إذا كنت لا تزالين ترغبين في الزواج مني، فلن تكون بيننا أسرار. لا أستطيع حقًّا أن أتذكر ما حدث لي قبل وصولي هنا، ولكنني أعلم أنني حتمًا دوَّنتُه في مذكراتي اليومية. تقول الممرضات إنها كانت معلقة فوق جسدي عندما وصلت.»

قال جوناثان وهو يعطيها الدفتر الصغير: «أسراري مطوية بين غلافَيْ هذا الدفتر. اقرئيها في الظرف والوقت المناسبين.»

أخذت مينا الدفتر ووضعته جانبًا دون أن تفتحه. وافقت على الزواج بجوناثان وأقاما حفل الزفاف في ذلك اليوم، بينما كان لا يزال في فراشه بالمشفى. لقد أهدرا ما يكفي من الوقت!

في الوقت ذاته، في لندن، حيث عادت لوسي بعد رحيل مينا من ويتبي إلى بودابست، استمرت معاناة لوسي من الأحلام الغريبة التي لازمتها في ويتبي. لم تستطع قطُّ تذكر

التفاصيل، لكنها كانت تصحو دائمًا والخوف يملؤها. كان وجهها يزداد شحوبًا على نحو غامض، وكان الجرح في رقبتها يتدهور يومًا بعد يوم.

قلق خطيب لوسي — آرثر هولموود — للغاية، وطلب من صديقه الدكتور جون سيوارد أن يحضر للغداء ليأخذ رأيه. قال له آرثر: «لا تخبرها بسبب مجيئك.»

لاحظ جون سيوارد أن لوسي كانت متغيرة كثيرًا. وأخبر آرثر أنه يفضل الكتابة إلى صديقه القديم ومعلمه الطبيب العظيم الأستاذ الجامعي فان هيلسنج في أمستردام؛ حيث كان يعرف عن الأمراض غير المألوفة أكثر من أي شخص آخر في العالم.

وافق آرثر وحضر الأستاذ فان هيلسنج. بدا قلقًا ولم يذكر السبب بعد، لكنه طلب بدلًا من ذلك إمهاله بعض الوقت للتفكير في حالة لوسي. في الوقت نفسه، طلب من الدكتور سيوارد أن يبقي عينيه على لوسي ويسجل كل التفاصيل مهما كانت بسيطة.

استمرت حالة لوسي في التدهور. عندما رآها فان هيلسنج كانت شديدة الشحوب حتى إنه لم يتبق عمليًّا أي احمرار في شفتيها أو لثتها. عبس فان هيلسنج وأخذ دكتور سيوارد إلى الرواق، ثم صاح قائلًا: «لا بد أن نجري لها نقل دم على الفور!»

تبرع آرثر بالدم، وفي غضون دقائق عادت الحياة إلى وجنتي لوسي. تنهدت وحركت رأسها حركة خفيفة. تحركت ياقة ثوب النوم الذي كانت ترتديه فكشفت عن العلامات الحمراء على رقبتها.

وعندما رأى فان هيلسنج العلامات، شهق بسرعة كبيرة حتى كاد يُسمع لنفَسه صفيرٌ. لم يلاحظ آرثر هذا لكن الدكتور سيوارد لاحظه. انتظر حتى اختلى بفان هيلسنج ليسأله: «ما الذي تستنتجه من تلك العلامات على رقبتها؟»

أجاب فان هيلسنج: «لست مستعدًّا للإجابة الآن، عليَّ العودة إلى أمستردام الليلة للرجوع إلى كتبي. ويجب أن تبقى هنا طوال الليل ولا تدعها تغيب عن نظرك.» ثم أمسك بذراع سيوارد وقال: «أنا جادٌّ في ذلك. يجب ألا تنام. سأعود سريعًا، وعندها سنبدأ.»

سأله: «نبدأ ماذا؟»

أجاب: «سوف ترى.»

اتفق الرجلان على عدم إخبار آرثر بالكثير، حتى لا يزيد قلقه. فهما على كل حال طبيبان مستعدَّان لمواجهة مثل هذه الأمور. وتنفيذًا للتوجيهات، راقب دكتور سيوارد لوسي طوال تلك الليلة والليلة التي تلتها. نامت لوسي كالطفل الصغير مطمئنة بوجود الطبيب إلى جوارها. وبسبب نقل الدم والراحة التامة، بدت في أتم صحة بعد يومين فقط.